الآداب الشرقية القديمة

الأدب السنسكريتي

الفيدا والملحمة

أوّلا- الفيدا Le véda

هي أولى الوثائق الأدبية في الهند، وهي عبارة عن نصوص دينية تواترت شفاهة ثم دوّنت كما وردت على ألسنة الرواة، مجهولة التاريخ والكاتب. لكنها عمل الجماعات الآرية (من جذور هندية أوروبية) التي غزت الهند من شمالها الغربي حوالي 200 ق.م. من هنا نسبت النصوص الفيدية القديمة إلى هذه الحقبة. قد يكون تاريخ تدوينها أحدث، واستمر طويلا حتى القرنين السادس أو الخامس ق. م.

أما لغة هذه الوثائق هي السنسكريتية القديمة (المدعوة السنسكريتية الفيدية) التي تشبه اللغة الإيرانية التي فيها كتبت المقاطع القديمة من "الأفستا" (المسماة "غاتا")، وهي ليست بعيدة عن اللغة الأم: الهندو – أوروبية. وتتميّز بغناها، وحرية قواعدها ووفرة مفرداتها، وخضوعها لنظام مراجع مقيّد بتمثلات أسطورية طقسية، فعلى اللغة أن تعبّر عن الصلات بين مظاهر العبادة أو الهيكل الإنساني والمظاهر المناخية أو السماوية.

ثانيا- البراهمانية والأوبانيشاد Les brâhmanas et les Upanichads

هو القسم الثاني من الأدب الفيدي، يتكوّن من النصوص البراهمانية وهي نثرية، تشرح الصيغ وتحلّل بعض الكلمات، وتفسر بعض أساطير الفيدا لتحديد الصلات بين النصوص القديمة والممارسات الحالية للتضحية.

أبرز هذه النصوص: الشاتاباتا (أو المئة طريق) الرائعة اللغة، حافظة للأساطير الجميلة، ولاسيّما أسطورة الطوفان.

كانت النصوص البراهمانية تحوي جزءا باطنيا: النصوص الآرانياكية (كتب الغابة)، كانت تروى خارج التجمعات، وهي مقاطع رمزية ذات قيمة طقسية توسعها الأوبانيشاد (أي الأبحاث عن المعادلات بين العالم الكبير والعالم الصغير)...

ثالثا – السوترا Les Sûtras

السوترا هي "الحكم" التي تمثل الـ "كالبا"، أي التعاليم الطقسية. وهي أوصاف دقيقة لاحتفالات العبادة: تضحيات يومية. تضم عددا مرتفعا من المحتفلين، تشير إلى ديانة متطورة عما تبدو في الأناشيد معقدة وذات أضحيات دموية. وقد وردت فيها حكم حول القانون، وحكم لبناء المذابح والمعابد، وأخرى لتثبيت التقويم الزمني، وأخرى للنظم وفقه اللغة، وأخيرا تعليقات وشروح امتدت إلى ما بعد العصر الفيدي.

رابعا– البورانا والتانترا Les Purânas et les Tantras

تعني كلمة "بورانا" القديم، وهي عبارة عن نصوص دينية مهداة إلى الآلهة، تصف الأساطير المقدسة وممارسات العبادات والحج... وقد يكون بعضها اختير لحاجات طقس معيّن. وأكثر هذه النصوص طويل، على أساس تاريخي أو شبه تاريخي. وهي قصة الكون منذ ما قبل التاريخ الجلي حتى السلالات الملكية في العصور الحديثة، وتحتوي على بعض الفصول الدنيوية من موسيقى، وشعر، وطب، وقواعد، مما يجعلها موسوعة.

وهناك مجموعة مماثلة جُمعت تحت اسم تانترا (أو الكتب)، وأبرزها المأخوذة عن البورانا والموضوعة في خدمة الهندوسية، والمعروفة باسم "التانترية". وهي عبارة عن نصوص دينية كما "بورانا" تحكي نشأة الكون والطقوس والعبادات، وهي واسعة التأملات، مجهولة التواريخ الدقيقة، إلا النصوص التانترية المهمة المرجح أنها من بدايات العصر الحديث، أما القديمة فتعود على الأرجح إلى القرن السابع أو القرن الثامن، تحت تأثير التانترية ذات الدفق البوذي.

الآداب الجميلة

1- كاليداسا Kâlidâsa: أوّل اسم كبير في الآداب السنسكريتية، ويرجح أنه عاش في بلاط كاندراغوبتا الثاني (375 – 414) في أوجاييني – مسقط رأسه، ويدعى "عبد الإلهة كالي"، ويعد أحد تسعة شعراء عمر بهم البلاط الملكي.

نسبت إلى "كاليداسا" مؤلفات عديدة، لم يبق منها سوى ثلاث مسرحيات، وثلاث قصائد طويلة، هي ملاحم قصيرة غنائية، ونسبت إليه قصيدة قد تكون من أيام صباه، عنوانها "دورة الفصول".

القصائد الثلاثة التي نسبت إليه هي:

1- سيغادوتا (الغيمة الرسولة): رثاء لعبقري (ياكشا) أُعدم في المنفى البعيد تاركا زوجته في مسقط رأسه، شمالي الحملايا، ويكلف ياكشا إحدى الغيمات المارة، حمل رسالة حب ووفاء، ويصف الشاعر مراحل عبور الغيمة فوق المدن والأنهار والغابات، وصولا إلى الحبيبة. والقصيدة روعة فن بسيط ومؤثر.

2- راغوفامشا (ذرية راغو): سرد شعري مثالي للسلالات الأسطورية التي هي من ذرية الشمس، وأشهرها سلالة الملك البطل راما. والقصيدة رائعة الوصف والمقاطع والأسلوب، وهي من 19 نشيدا (غير منتهية) تغلب عليها الرتابة والجفاف. وفيها دورة الفصول، ومشهد المدينة المهجورة، ونساء أيوذيا المتهافتات ليشهدن مواكب الأمراء، وفصل للمتصوف الشاب ضحية سهم لم يوجه إليه أصلا، كان ذاهبا إلى النهر ليعبئ الماء لأبويه المعاقين.

3- كوماراسامبافا (مولد كومارا): تتكون من ثمانية أناشيد، لا تصف كما يدل العنوان ولادة ابن شيفا، بل الأحداث التي سبقتها، وخاصة الممارسات الصوفية التي كان يقوم بها شيفا على الحملايا، ثم كيف خادمة الله بارفاتي توصلت إلى جعل الله يحبّها بعدما مارست تصوفا قاسيا...

أما مسرحياته:

1- "أغنيمترا وملافيكا": تتحدث عن أميرة تعيش مجهولة في بلاط الملك، يعشقها الملك فتفاجئهما الملكة وتضبطهما، وينقذ الموقف أن الفتاة من أصل ملكي ويحق لها أن تكون هي الأخرى زوجة للملك.

2- "يكرامورفاشي" (أورفاشي والبطولة): تتحدث عن حورية يغويها بشري، وتجري بينهما مشاهد مفخمة.

3- "شاكونتالا": وهي رائعة كاليداسا، موضوعها مستمد من الملحمة، ينقاد الملك "دوشيانتا" إلى عمق الغابة خلال رحلة صيد، فيصل إلى صومعة يجد فيها الصبية "شاكونتالا" ابنة "آبساراس". فتحابا وتجامعا سرا. ثم عاد الملك إلى عاصمته واعدا حبيبته باستقدامه إليه، تاركا معها عربونا متمثلا في خاتمه. لكن "شاكونتالا" غاصت في حلمها، أهملت تحية متصوف زاهد غضوب، فأطلق عليها لعنة ونسيها الملك، وحاولت عبثا، المثول إليه وتذكيره بها، خاصة أنها ضيعت الخاتم الذي وحده يذكره بها. فحملتها أمها نحو السماوات، واكتشف الخاتم، فيما بعد أحد الصيادين. فاستعاد الملك ذاكرته، وعبثا راح يبحث عن حبيبته. وذات يوم يلتقي ولدا يكتشف أنه ابنه من "شاكونتالا" التي عاد فالتقاها.

2- القصة الهندية: البانتشاتانترا (Le Pancatantra): تعود جذور القصة السنسكريتية إلى الفيدا حيث الالماحات إلى الأساطير والقصص الخيالية الشعبية... وهي قصص نثرية، مع أبيات وعظية، أبطالها معظمهم حيوانات تمتزج بالبشر: ابن آوى، وزير الأسد (يلعب دور الثعلب في خرافات الغرب)، أسلوبها سلس وسهل.

دخلت هذه المجموعات إلى الغرب، مجهولة، مترجمة عن السنسكريتية، أقدمها في الفهلوية من القرن السادس. ثم انطلقت منها ترجمات إلى مختلف اللغات الأوروبية القديمة والمعاصرة، وإلى لغات الشرق الأدنى، وانطلقت من السنسكريتية أو الهندية الوسيطة ترجمات إلى آسيا الشرقية

أو الجنوبية... ومن هذه المصادر السنسكريتية عرف العالم أساطير كثيرة مع لافونتين وغريم وأندرسن.

3-الرواية الهندية: تتميّز بالجودة والسلاسة في الأسلوب، من بينها الرواية المنسوبة إلى داندان من القرن السادس، وعنوانها "داشاكوماراتشاريتا" (حكاية عشرة شبان) وهم أبناء ملوك أو وزراء، يروي مغامراته في الشرق تقليدا للمغامرات المروية في الملاحم. كما نجد أيضا "فازافاداتا" الرواية التي كتبها سوباندو (القرن السابع) ولاقت في الهند رواجا كثيرا، وفي هذه الفترة ظهرت أولى الكتابات الروائية ذات النفس الملحمي، شعرا أو نثرا. وأبرزها اليوم سوماديفازوري.

كما نجد كتابي "بانا" شاعر بلاط الإمبراطور هارشا. الكتاب الأوّل "هارشا تشاريتا" (حكاية هارشا) عن سيرة سيده السلطان الحاكم، في دقة وصفية وأمانة تاريخية: مشاهد من حياة البلاط، وصف الاحتفالات الكبرى، قصص الفرق العسكرية المحاربة، ومشاهد قروية وحقلية... وكان شكلها الأدبي قمة الأسلوب السنسكريتي، في براعة اختيار الكلمات، وتناسق الجمل رغم طولها. الكتاب الثاني: "كادامباري" وهي قصة تعتبر قمة الفن الهندي، تتحدث عن عشاق فرق بينهم القدر، وفيها وصف للمدن والمناظر والأشخاص...